متى سنتخلص من قلة ايماننا بقدرات أبنائنا؟
متى سنفهم بأن مستقبل أطفالنا أكثر أهمية من الماضي؟
متى سنستطيع التفريق بين التربية الحقيقية وما شابه التربية؟
متى سنعمل على إزاحة العقبات بين المدرسة وبين المجتمع والحياة.
كاسبي، 1979 من: التربية غداً

# التربية على طريقة نيتشيه

**يحيى حجازي**
**مرشد ومحاضر تربوي**
**كلية دافيد يلين للتربية**

## مقدمة

سيتم التطرق في هذه المقالة إلى إبراز وجه آخر للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه الذي أبدع في مجال الفلسفة، حيث كان له عميق الأثر في العقل الأوروبي بشكل عام في مجالي الفلسفة والتربية.

فريدريك نيتشة، فيلسوف الحقيقة المطلقة. ذلك الشخص الذي أبى أن يتقبل قدره الصعب الذي حاول تدمير قواه بسبب المرض الذي ألم به، مطلقاً العنان لإرادته في تسيير حياته والتحكم بها تحكم النفس على الجسد. لم يؤمن قط بأن الشخص الذي يمثل القوة والعظمة شخص بعيد عنه، أو من صنع خيال لا يمت بصلة إلى الواقع، وإنما آمن دائماً بأن العظمة هي بنت المحبة المتناهية، والتي من خلالها فقط نستطيع الوصول إلى الكمال والإبداع.

لم يكن نيتشة أول من اقترح وناقش فكرة الكمال الإنساني، كما يعتقد البعض. حيث أن هذه الفكرة انبثقت ونوقشت في الديانات المختلفة قبل آلاف السنين. ولكن عندما تحدثت الديانات عن الكمال قصدوا الكمال الروحي، بينما الكمال الذي قصده نيتشة يتخطى المفاهيم المحسوسة، حيث مبتغاة هنا في مفهومه للكمال كان إطلاق العنان للعظمة الإنسانية ابتغاء تحويل هذه البسيطة إلى جنة عدن.

الكثيرون منا تعرف على هذا الفيلسوف من زوايا مختلفة، تتناقض أحياناً، مكملة بعضها البعض أحياناً أخرى. فقد فهم البعض -على سبيل المثال- مفهوم "قوة التسامي" الذي كان أحد دعائم فلسفته

---

ولد فريدريك نيتشه سنة 1844 في بلدة روكن في ألمانيا وكان أبوه بروتستنتينياً من أسرة بولونية هجرت بلادها على أثر اضطهاد ضد أشياع كنيسة الإصلاح. أصيب نيتشة عام 1876 بمرض "الزهري الوراثي" فحكمه صداع شديد أضعف بصره. فبقي يكتب ويفكر مصارعاً هذا المرض عشر سنوات فلا هو يبرأ منه فيحيا ولا يقضي عليه فيخلصه من هذا الألم المميت. توفي نيتشة عام 1900 بعد أن أصيب بالفالج فتوارى جسده وبقي فكره ينير لأوروبا والعالم أجمع أبهى صور التحدي والصمود للعقل البشري. من أعماله الجبارة التي تشهد عليه حتى يومنا هذا: "هكذا تكلم زرادشت" "الخير والشر" وغيرها.

والذي ذكر في الكثير من كتاباته، بأنه مصدر العدوانية السلبية الطبيعي الموجود في تركيبة كل إنسان، بينما رأى البعض الأخر "قوة التسامي" كتعالي الإنسان على غرائزه درجات، وكارتقائه فوق مسلمات الإيديولوجيات والثقافات التي تعمل على تقييد وتحجيم قدرته على الخلق والإبداع، ونزعته الطبيعية للتطور.

يؤمن نيتشه بأن الشخص هو "سيد قدره"، ولذا فإن موقفه تجاه الجهاز التربوي التقليدي واضح جداً، فهو يرى بأن الجهاز التربوي الرسمي هو "سيد أقدار طلابه"، والذي يحطم التطور الفردي دون إعطاء أي فرصة للفرد في التعبير عن قدراته. حيث أن الجهاز مبني بشكل هرمي ومكون من (أهداف وبرامج وما إلى ذلك) كتبت جميعها على أيدي أشخاص أيديولوجيين، وقيمت على أيدي نفس الأشخاص. لقد عرف نيتشه هؤلاء الأشخاص كمن يقفون متجمدين مشلولين أمام الأيديولوجية والمسلمات خوفهم من الموت، والتي بدورها توجههم كيفما تريد هي. فعندما تتكلم الأيديولوجية تكون صاحبة الكلمة الأخيرة.

## طبيعة الإنسان حسب نيتشه

في كتابه "هكذا تكلم زرادشت" يؤمن نيتشه بأن الإنسان مخلوق حر بطبيعته، مسؤول عن قدره، يستطيع أخذ القرارات الملائمة له. إنه يرى في القوة الكامنة الإيجابية التي بداخل كل منا، الموجهة لنا، القوة "الحقيقية" التي يجب الاستماع لها بكل أحاسيسنا. إنه يرى بأن متطلبات "الأنا الأعلى" المتمثلة بالمسلمات إنما هي متطلبات لعينة وصعبة للغاية مثلها مثل متطلبات الأيديولوجية، ولذا فإننا إذا ما استمعنا إلى متطلبات أنفسنا فسوف تكون حياتنا مغايرة للتي هي عليه الآن، حياة ذات معنى.

يرى نيتشه الإنسان مقيداً بتعاليم المجتمع والقيم السلفية حتى يتحرر منها، وهذا أمر صعب للغاية. الحرية بحد ذاتها ليت غاية في حد ذاتها وإنما هي الطريق لتحقيق غايات إنسانية جديدة تهدف إلى الارتقاء بالفرد وبالمجتمع. نرى زارا في (طرق المبدع، 89) يتحدى الفرد الذي يدعي التحرر قائلاً: إنك تدعو نفسك حراً، فقل لي ما هي الفكرة التي تقيمها مبدأ لك، ولا تكتف بقولك انك خلعت نيرك. فهل كنت يا ترى ذا حق بخلعه؟ إن من الناس من يفقدون آخر مزية لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم. لا يهم زارا أن تقول له من أي عبودية تحررت، فلتعلن له نظراتك الصافية الغاية التي تحررت من أجلها".

هذه النظرة عن طبيعة الفرد كان لها عميق الأثر على الكثير من الأخصائيين النفسيين أمثال (أدلر)، حيث أن هذه النظرة لطبيعة الإنسان تجعل الباب مفتوحاً على مصراعيه للتدخل التربوي المثمر. حيث يرى أدلر أيضاً بأن الإنسان الصحيح نفسياً يتطلع دائماً إلى "المساهمة للمجتمع الذي يعيش فيه" Social Interest. فكلما كان هذا التطلع متطوراً وكانت العلاقة التي تربط الفرد بمجتمعه جيدة، يكون الإنسان متوازناً نفسياً وصاحب مقدرة على المساهمة الفعالة في المجتمع الذي ينتمي إليه. نيتشة يوضح أهمية العطاء للمجتمع والمساهمة للثقافة العامة فيقول بأن الإنسان ليس مهماً بحد ذاته إن لم يساهم في تطوير مجتمعه، فالمساهمة العامة للمجتمع وأخذ دور في تطوير الثقافة يعتبر أمراً مركزياً يبرر وجود الفرد.

ولذا فإن شكل العلاقة بين الفرد ومجتمعه هو أمر جدير بالأهمية. فكلما كانت العلاقة متوترة

استدخل الفرد المجتمع كجسم عدائي يواجهه بالمحاربة أحياناً وبعدم القدرة على التكيف به أحياناً أخرى، فيرى المجتمع كإطار انتماء يخذله ويحطم إمكانياته باستمرار. ( داريكورم، 1994).

## التربية حسب نيتشة

### المعلـــم:

إن المعلم حسب شوبنهاور ونيتشة يجب أن يكون "حقيقياً"، حيث أن دوره في تحرير الفرد من قيود المجتمع والمسلمات يتطلب منه أن يكون "حقيقياً". المعلم بحسب هذه النظرية يؤمن بأن هناك عوالم ومعتقدات غير واضحة وغير معلومة يسعى إلى التعرف عليها. لا يرى نيتشة المعلم كصاحب الامتياز في الوساطة بين الطالب ومجتمعه، فهذا الموقع يحجم نقاط الاحتكاك التي يقيمها الطالب مع المجتمع الخارجي (تنباوم، 1997).

لقد تأثر نيتشة كثيراً من شوبنهاور، حيث أنه رأى أن على كل معلم أن يفتش عن "نموذج" للتشبه به، أو فيلسوف للتعلم منه. ولذا فإنه لا يرى أي أهمية للجامعة إذا لم يكن هناك أناساً يمكن التعلم والتأثر منهم.

كذلك فإن نيتشة يتوقع من المعلم أن يكون كريماً مبدعاً خلاقاً فاحصاً لا يتقيد بقيود الماضي وإنما يتنعم بنعيم الحاضر والتطلع إلى المستقبل محاولاً الرقي فوق قدراته الآنية ليبنى قيماً جديدة تنفع الفرد والمجتمع. في كتابه هكذا تكلم زرادشت ( دوحة الجبل) "إن الرجل الكريم يريد أن يبدع شيئاً جديداً وفضيلة جديدة، على حين أن الرجل الصالح لا يحن إلا إلى الأشياء القديمة، وجل رغبته تتجه إلى الإبقاء عليها"

## العملية التعليمية

العملية التعليمية حسب نيتشة هي تحرير روح وعقل الإنسان من القيود التي تكبلهما. فما هدف العملية التعليمية إلا إعطاء الفرصة للفرد (للطالب) أن يحقق ذاته "الحقيقية" وأن يسيطر على العالم الذي يحيط به. إن هذه العملية –حسب نيتشة– ليست عملية إدراكية بحتة، وإنما عملية شعورية عقلية منعكسة في جميع مجالات الحياة.

لم ير نيتشه دور الطالب في استدخال قيم حتى لو كانت تلك القيم هي قيم المعلم الذي يقتاد به، بل بالعكس تماماً فهو يرى دور المطالب في التمرد على تعاليم المدرس، فنراه في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) يشجع الفرد في التحرر من قيود المجتمع والتعاليم التي نشأ عليها، حتى أن التحرر بالنسبة لنيتشة ليس قيمة بحد ذاتها، وإنما هي وسيلة للخلق ولتكوين قيم جديدة.

يقول زارا في كتابه هكذا تكلم زرادشت (مستهل زرادشت، 9) "انظروا إلى أهل الصلاح والعدل لتعلموا من هم ألد أعدائهم. انه من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم، ذلك هو الهدام، ذلك هو المجرم، غير أنه المبدع . . . . إن المبدع لا يتخذ له رفاقاً إلا من كانوا مثله مبدعين، إنه يتخذهم ممن يحفرون سنناً جديدة على ألواح جديدة". من الظاهر للعبارة يعتقد الفرد بأن نيتشه يريد منا أن نضرب الشرائع والقوانين الاجتماعية بعرض الحائط للتخلص منها، ولكن الهدف من ذلك هو التفكير والتعمق

وعدم الاستسلام للشرائع والقوانين الاجتماعية إن لم نكن نؤمن بها حقاً وإن لم نكن قد قمنا بنقدها وبنائها مجدداً. كل هذه العملية لا تهدف إلى ارتقاء الفرد فقط وإنما تهدف أيضاً إلى ارتقاء المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد أيضاً.

من أجل خلق قيم جديدة يجب على الفرد الابتعاد عن القيم التي نشأ عليها وفحصها من جديد. فرغبة زاردشت في كتابه هي خلق طالب يكون (صديقاً ونداً). ليكن لديك صديقاً جيداً في عدوك، وليكن قلبك قريباً إليه حين تقف ضده، يقول زارا (الصديق، 81) "لا يصلح للكفاح إلا من يمكنه أن يكون عدواً. يجب على المرء أن يحترم عداءه في صديقه، إذ لا يمكن أن تقترب من قلب صديقك إلا حين تهاجمه وتحارب شخصيته".

التأرجح وفحص القيم باستمرار هي الطريق الوحيد للتعرف على القيم الحقيقية، فالتأرجح يكون في اتجاهين: تأرجح نحو الخارج، أي نحو العالم الظاهر، وتأرجح نحو الداخل إلى الذات البشرية. كذلك فإن هذا التأرجح له صورة محسوسة وصورة صورية مجردة. التأرجح يمكن أن يكون شعورياً ويمكن أن يكون عقلياً - حيث أن على الفرد أن يتعلم، أن يكون جريئاً، أن يتخيل وأن يعيد فحص المسلمات (كسبي، 1994).

لقد عرض نيتشة في كتابه موضوعات في التربية للثقافة( 1988) التطور الإنساني للطالب في ثلاثة أطوار: 1. طور الجمل 2. طور الأسد 3. طور الطفل. في الطور الأول يكون الإنسان كما الجمل يحمل نفسه أكثر من طاقتها من تقاليد ومسلمات ومسؤوليات وستدخلها. أما في طور الأسد، فنراه يثور على الطور الأول بشجاعة وقوة، ساعياً إلى تحرير نفسه. أما في طور الطفل يستطيع الفرد بسذاجة الطفل وطبيعته أن يخلق لنفسه قيماً جديدة ليست كسابقتها، وإنماً قيماً مبنية على العفوية والاستقلالية، حيث أن الإنسان في هذا الطور يكون صانع حياته.

نستطيع أن نرى أن النموذج الذي طرحه نيتشة في كتاباته هو عكس ما تقترحه التربية التقليدية، حيث أن التربية العادية تبدأ بطور الطفل وتنتهي بطور الجمل، حيث تهدف التنشئة التقليدية إلى خلق إنسان يتحمل أعباء الأمور ويتفهم وستدخل مسلمات المجتمع والأيديولوجية كمثل أعلى في نهاية العملية التربوية وكهدف لها.

## بين التلقائية والبربرية

نستطيع القول بأن نيتشة يفتش عن الفرد المتميز والحقيقي لكي يقوم بتطويره ولكي يعطيه الفرصة للتسامي والتعالي عن كل ما يقيد ذاته. لربما يعتقد القارئ بأن نيتشة وروسو يرون طبيعة التطور الإنساني ومفهوم التربية وأهدافها من نفس المنظار، ولكن الأمر عكس ذلك تماماً بالرغم من أن كليهما يتحدث عن الطبيعية والتحرر.

إن روسو يرى أن على الفرد أن يتحرر من قيود المجتمع والتصدي لها والثورة على مقوماتها، حيث أن كثيراً من القيم الإنسانية قد تختفي، فهو يطرح نموذج الفرد "البربري" كنموذج مثالي مقابل النموذج "الحضاري" الذي يجب على الفرد الثورة ضده. نيتشة في المقابل استطاع التعرف على (مرض

مجتمعه) المتمثل بالصراع وعدم الاتزان بين الطبيعية والتحضر، ولذا فقد رأيناه يركز ثقله على التوجه الطبيعي ولكن مع الحفاظ على الانتماء للمجتمع والمساهمة فيه. باختصار فإن نيتشة يحاول اقتراح بديل للفرد المتحضر ويساعده على التخلص من قيوده المفروضة عليه بحكم الأيديولوجية والمجتمع، ولكن بنفس الوقت الحفاظ على عدم الوقوع إلى وضع لا قيم فيه. (تتنباوم، 1997).

## تلخيص

يولي نيتشه أهمية كبيرة لدور المعلم والعملية التربوية، باعتباره وسيطاً بين الطالب والثقافة المجتمعية. كذلك نرى أنه يتطلع إلى ذاتية الفرد وتفرده بسمات وقدرات وميول خاصة به كمصدر للعمل الهادف إلى تطوير المجتمع الذي ينتمي إليه.

وظيفة المعلم اليوم في الجهاز التعليمي لا تتوافق غالباً مع نظرة نيتشة لمفهوم العملية التعلمية والتعليمية، حيث أنه غالباً ما نرى أن المدرسة تعد من حين إلى آخر علماء متخصصين في مجالات المعرفة المختلفة ولكنها لا تكون مساهماً بإعداد أفراد مفكرين أو قادة يحملون راية التغيير الثقافي النابع من رحلة قاموا بها في أعماق أعماقهم.

كاسبي (1979) تطرق إلى قدرات وسمات يطورها الطفل منذ نشوئه، ومن هذه القدرات والسمات قدرته على أن يكون مسؤولاً من ناحية وجريئاً من الناحية الأخرى، أن يكون مؤمناً من ناحية وشكاكاً في كل ما يؤمن به من ناحية ثانية، ففي أحد كتبه على سبيل المثال "الخير والشر" أوضح نيتشه الصراع بين الحقيقة المطلقة والحقيقة الذاتية، وأوضح بأن أموراً كثيرة قد نؤمن بها تكون وهماً حتى نفكر فيها مرة أخرى. إن المدرسة غالباً ما تحاول زرع القيم والمبادئ في رؤوس أطفالنا وهذا أمر جيد إذا ما توافق مع تعليمهم القدرة على التشكيك في الكثير من القيم والمبادئ التي يربون عليها بهدف تطوير قيم ثقافية أفضل. فالتشكيك بالمسلمات ليس بالأمر السيء ولكنه يعطي فرصة للشخص لمواجهة الكثير من المعتقدات في عالم متغير الصور والوجوه.

يرى نيتشة الفرد طاقة غريزية خلاقة بقوة الإرادة، والتي تخاف من التعبير عن ذاتها وعن خصوصيتها، فتختار الشكل العام والمقبول تحت مظلة الإيديولوجية والمسلمات. فالجهاز التربوي مثلاً، ذلك الجهاز الرسمي الذي يرضع طلابه المعتقدات الإيديولوجية للدولة، يعمل على كبح جماح الفرد، فلا يعبر إلا عما هو مقبول ومشترك، وليس عما هو خاص. هذا الصراع بين الفرد والمجتمع يتأصل في الصراع بين النظرة التقليدية في التربية والتي تستمد قواها من الدين والتقاليد والمقومات التاريخية الداعمة لها، وبين النظرة الإنسانية والشمولية التي ترى في الفرد "صاحب الحق" في التحكم في شخصه واحتياجاته، والتي تناقض عموماً توقعات المجتمع وواضعي السياسات التقليديين. إن هذه النظرة الإنسانية ترى أهمية انتماء ومساهمة الشخص لمجتمعه، ولكن بما هو خاص.

أتذكر عندما كنت طالباً قال لي المعلمون بأن المعتقدات ليست موضوعاً للتساؤل والاستفسار ولا حتى للشكوك، ولكن نيتشه يرى بدورنا كمدرسين إعطاء الفرصة لإطلاق العنان للعقل البشري للتساؤل والاستفسار لكي يشكل معتقداته، يغيرها أو يقويها.

إن من الصعب على المدرس تأصيل سمات وقدرات وطرق بديلة في التفكير والنقد لدى طلابه إن لم يكن هو نفسه قد مر في رحلة التفتيش هذه. حيث أن عملية التطور والتغير لدى المعلم تبدأ في مراحل مسبقة ويجب أن تلقى لها صدى في كليات التربية تكون عملية تأهيل المدرسين مغايرة لتلك القائمة اليوم. فمن وظيفة الكليات حسب رؤية نيتشيه لدور المؤسسات التعليمية تطوير السمات والقدرات "الجيدة، المتفردة والخاصة" في كل معلم وليس تلقين العلوم المعرفية والأساليب التعليمية فقط.

إن عملية التغيير هي عملية شاقة، فان لم يبدأ الفرد بتغيير ذاته فسيكون من الصعب التطور والرقي بالعملية التدريسية ونقلها من محدودية الهدف إلى عملية تعتبر تطور الفرد أهم بألف مرة من تعبئته بمواد تعليمية فقط.

بالرغم من صعوبة الأمر فان من واجب دور المعلمين والجامعات تأهيل معلمين مفكرين، ناقدين يستطيعون التفكير ويجرءون على نقد المسلمات التربوية القائمة واقتراح بدائل لتحل محلها واقتراح مثال يحتذى به لطلابهم في المستقبل.

## المراجع


דרייקורס ר., (1994) **יסודות הפסיכולוגיה האדלריינית,** תל אביב: מכון אדלר

טננבאום א., (תשמ ז). "פרולגומנה לחינוך, הפוסט - ביקורתי, או ניטשה מעבר לנאורות ולפשיזם" בתוך: **עיונים בחינוך, (כרך 2 חו 2):** הוצאת הספרים של אוניברסים חיפה.

כספי מ ד. (1979). **החינוך מחר,** הוצאת עם עובד, תל אביב: ספרית אופקים.

ניטשה פ. (תשמ ח), **מסות על חינוך לתרבות תרגום לעברית:** גולומב יעקב, האוניברסיטה העברית, ירושלים.

نيتشه، فريدريك (1885) هكذا تكلم زارادشت. دار القلم، بيروت.

ترجمه الى العربية: فليكس فارس.